مجلة جامعة الملك سعود، م ٢٤، الآداب (١)، ص ص ١-١٥، الرياض (٢٠١٢م/١٤٣٣هـ)

الهوية الوطنية السعودية: عوامل ظهورها وقوتها

حسن محمد حسن

أستاذ علم الاجتماع المساعد، كلية الآداب، جامعة الملك سعود،

الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٤/ ٩/ ١٤٣٢هـ؛ وقبل للنشر في ١٤٣٢/١١/٢٨هـ)

ملخص البحث. يهدف البحث إلى الكشف عن العوامل الأصيلة التي أسهمت في ظهور الهوية الوطنية السعودية والتي أكسبتها قوة تجعلها تواجه تحديات التأثيرات الثقافية الخارجية وتصمد أمام محاولات نشر القيم الثقافية الغربية عن طريق دعاوى التحديث والابتعاد عن التشدد.

ويوضح البحث سبل دعم الانتماء للهوية الوطنية وضمان استمرارية هذا الانتماء وحيويته عبر الزمن ورغم التغيرات التي يشهدها المجتمع بتأثير من عمليات الاحتكاك الثقافي مع الآخر.

مقدمة

تحظى دراسة الهوية الوطنية بقدر كبير من الاهتمام في الوقت الحاضر لما تتعرض له الدول الوطنية من غزو وتأثير ثقافي تمارسه الدول الكبرى وتكتلاتها السياسية- الثقافية التي أفصحت عن نفسها على الساحة الدولية؛ وتعد محاولات بث الثقافة الأمريكية والادعاء بأنها النموذج الأوحد في العالم بعد نهاية التاريخ من أخطر ما يهدد الهويات الوطنية في كثير من البلدان التي تحرص على ألا تنجرف مع تيار الاستغراب وتنسلخ من هويتها وثقافتها.

وتتعرض المملكة العربية السعودية منذ سنوات إلى محاولات النيل من هويتها الوطنية وإثارة الشكوك حول فاعلية ثوابتها الثقافية الأمر الذي يحفز الباحثين على ضرورة التصدي لهذه الموجات المناوئة للثقافة الإسلامية والهوية الوطنية للمملكة وعلى مواجهة هذه التحديات بالكشف عن العوامل الأصلية التي

أسهمت في ظهور الهوية الوطنية السعودية وأكسبتها القوة والصلابة والعوامل التي تسهم في استمراريتها وحيويتها في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة عليها.

ونبدأ معالجة الموضوع بطرح إطار نظري نلقى فيه الضوء على مفهوم الهوية الوطنية مع توضيح وجه الصلة بينه وبين القضايا المتعددة التي يتناولها موضوع البحث.

أولاً: الهوية الوطنية: إطار نظري

تمثل الهوية الوطنية موضوعاً مشتركاً للباحثين في ميادين علم الاجتماع وعلم السياسة وعلم النفس ولذلك فقد تعددت التصورات عن مفهوم الهوية الوطنية بتعدد المنظورات التي انطلق منها الباحثون. والواقع أننا نرى أن هذا المفهوم، على وجه الخصوص، ينطوي على جوانب نفسية وسياسية واجتماعية ولذلك ليس من الممكن تناوله من زاوية واحدة.

ويشير قاموس علم الاجتماع إلى أن: "الهوية الوطنية في جوهرها هي الشعور الجمعي الذي يتجسد في الروابط الثقافية وفي تجانس الأفراد وامتثالهم لقوانين المجتمع، وفي التعاون بين النظم الأساسية في المجتمع وفي اشتراك الأفراد في اللغة والدين والزي، وفي كل ما يثير الاعتزاز والفخر، وكذلك الاشتراك في مبادئ الأخلاق والسياسة وأنماط الأسرة، والرغبة في الحياة المشتركة وفي وحدة المشاعر". (Henry Pratt, 1977).

وينطوي هذا التصور الاجتماعي للهوية الوطنية على كل المقومات الضرورية للحياة الجمعية التي تؤكد انتماء الأفراد للجماعة التي هم أعضاء فيها، وتخلق فيما بينهم رابطة تميزهم عن غيرهم. وهذه الروابط الثقافية تولد التجانس والتوافق بين أعضاء الجماعة مما ييسر تعاونهم معاً ويزيد من فاعلية حياتهم المشتركة.

وهناك تعريف آخر للهوية الوطنية يرى أنها: "الرابطة التي تحقق اللحمة ووحدة النسيج بين الأفراد ووطنهم، وبينهم وبين حكومتهم، وجميع المؤسسات والرموز الوطنية التي ترتبط بها. كما أنها تعد السمة التي تميز أبناء الوطن عن غيرهم". (Hossen, 1994).

ويوضح هذا التعريف أن ائتلاف أبناء الوطن وتوحدهم مع حكومتهم ورموزها ومؤسساتها هو الذي يكسبهم هويتهم الوطنية التي تجعل لهم كيانا متميزا قائما بذاته.

ويذهب نديم البيطار (٢٠٠٢م) إلى أن الهوية الوطنية ظاهرة تتشكل من خلال عملية تاريخية" وأن أهم عنصر في تشكيل الهوية الوطنية في معناها السوسيولوجي هو الخلفية التاريخية ... وأن الأمة تصنع أنظمتها الثقافية والاجتماعية، ولكن هذه الأنظمة هي التي تشكل وتكون هوية الأمة". ويعكس لنا هذا الرأي أهمية البعد التاريخي في تشكيل الهوية الوطنية، وذلك على أساس أن هوية الأمة تتحدد بتجاربها عبر الزمن، والخلفية التاريخية الواحدة لأبناء المجتمع الواحد هي التي تحقق وحدة الشعور القومي بينهم.

ويؤكد بعض الباحثين في تعريفهم للهوية الوطنية أنها "حالة يتوحد فيها أفراد الشعب ككل مع الرموز الوطنية – فيستدمجون في كيانهم رموز الأمة – إلى حد أنهم يتحركون كجماعة سيكولوجية واحدة عندما يواجههم تهديد ما أو عندما يعمدون إلى إعلاء شأن هذه الرموز الوطنية"(Bloom, 1990) . والواقع أن هذا التعريف يكشف عما تنطوي عليه الهوية الوطنية من حالة توحد بين أفراد المجتمع والرموز الوطنية. وتنقسم هذه الرموز في رأي كارل دويتش (Karl Deutsch) إلى ستة أقسام تشتمل على: الرموز المجردة مثل الكلمات والأفكار والشعارات، والرموز المصورة مثل الرايات والأشياء التاريخية والأبنية، والرموز الشخصية مثل الأنبياء والصديقين والملوك والأبطال، والرموز المكانية مثل المواقع التاريخية والأماكن المقدسة، والمؤسسات الرمزية مثل المؤسسات التشريعية وأخيراً الرموز الدينية والتي تجمع ما بين كل الرموز السابقة فقد تتكون من رموز لأماكن مقدسة وأشخاص لهم قدرهم من الناحية الدينية ... الخ" (Deutsch, 1979).

نخلص مما سبق إلى أن الهوية الوطنية تتبلور عندما تكون هناك وحدة وجدانية بين أفراد المجتمع وإجماع منهم على ضرورة تبجيل رموز معينة تبجيلاً ينسج نوعاً من التكامل القومي بينهم. ولعل هذا الرأي، يدعمه ما يذهب إليه دوركايم من أن القيم والمعايير الاجتماعية، وهي مجموعة من الرموز المجردة، تلعب دوراً مهماً في دمج أفراد المجتمع معاً في وحدة واحدة، كما تعمل على تحقيق التضامن أو التماسك الاجتماعي بين أولئك الأفراد، ومن ثم فهي تحول الجماعة من مجرد تجمع لعدد من الكيانات الفردية إلى نسق أو كيان موحد له خصائص جديدة متميزة أي له هوية جمعية وقومية؛ يعمل فيها الأفراد المرتبطين معاً برباط مشترك، وفي إطار من التعاون فيما بينهم، على الحفاظ على هذا الكيان والدفاع عنه وتعزيزه (Durkheim, 1964).

وهكذا، يمكن أن ننظر إلى الهوية الوطنية على أنها رابطة اجتماعية تحمل في طياتها طابعاً ثقافياً متميزاً، وتنشأ هذه الرابطة بإقامة الأفراد على مجتمع متوحد إقامة تتميز بالاستقرار. أما الطابع الثقافي المتميز لتلك الرابطة فهو يتمثل في الوحدة الوجدانية للأفراد والتي تتحقق عن طريق عدد من العناصر الثقافية مثل اللغة والدين والعادات والتقاليد والاتفاق على تبجيل كثير من الرموز السياسية والدينية. وهذه العناصر الثقافية تصب جميعاً في اتجاه واحد وهو تشكيل الهوية الوطنية لأفراد المجتمع والتي تترجم في أن يعلو الانتماء إلى الدولة على الانتماء إلى القبيلة فيرى المرء نفسه سعودياً قبل أن يرى نفسه قحطانياً.

وبتطبيق هذا التصور النظري على المجتمع السعودي يرى الباحث أن توحيد المملكة وتوطين البدو- الذين كانوا في حقبة تاريخية معينة يمثلون غالبية السكان- كانا من أهم العوامل التي أسهمت في تكوين الهوية الوطنية السعودية ولم يكن لهذين

العاملين أن يتحققا لولا فاعلية القيادة الملهمة (الكاريزمية) Charismatic للمغفور له الملك عبد العزيز وتوفر العناصر الثقافية الأصلية لدى السكان وفي مقدمتها العقيدة الإسلامية والقيم والأخلاق العربية التي يتمسكون بها.

وإذا كانت تلك هي عوامل تكوين الهوية السعودية فإن قوة هذه الهوية واستمرارها يتوقف على عدد آخر من العوامل من أهمها قدرة المجتمع السعودي على التوافق مع عملية التحديث التي فرضتها عليه ضرورة مواكبة تيار العولمة والتحولات الاجتماعية والثقافية المصاحبة لها وكذلك مدى مرونة أبنية المجتمع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية واستجابتها لتطلعات القوى الاجتماعية المتنامية والتي تضم المثقفين ورجال الأعمال والمرأة والشباب وغيرهم.

وفيما يلي نقوم بمعالجة عوامل تكوين الهوية السعودية ثم نناقش عوامل قوتها واستمراريتها.

ثانياً: عوامل تكوين الهوية السعودية

أشرنا إلى أن هناك عدداً من العوامل التي أسهمت في تكوين الهوية السعودية وكان لكل منها دور لا يقل في أهميته عن بقية العوامل الأخرى، ولذلك فالعلاقة العضوية بين هذه العوامل لا تسمح بفصل أحدها عن الآخر إلا لأغراض التحليل والدراسة العلمية.

العامل الأول: توحيد المملكة

ترتبط الهوية الوطنية ارتباطاً وثيقاً ببناء المجتمع السياسي الذي تمثله الدولة كوحدة سياسية لها ذاتيتها. ولا يكتمل بناء الدولة إلا بوحدة الإقليم الذي تقوم عليه الدولة ؛ ذلك أن تجزئة الدولة إلى أقسام مفتتة يترتب عليه تعدد الولاءات السياسية بتعدد الأجزاء التي تنقسم إليها، حيث يذهب قادة كل جزء من الدولة بأشياعهم ومؤيديهم لتأكيد شرعية حكمهم وسيطرتهم متبعين في ذلك شتى الوسائل والسبل.

ونستبين من واقع المملكة العربية السعودية قبل توحيدها على يد المغفور له الملك عبد العزيز أهمية هذه الخطوة التي كانت ركيزة قامت عليها الهوية الوطنية السعودية. فعندما انتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ وبجلاء العثمانيين عن البلاد العربية بناء على الاتفاق الذي تم بينهم وبين الحلفاء في أكتوبر سنة ١٩١٨ "كان بالجزيرة العربية خمس إمارات أو حكومات تتنازع السيادة والفوز فيما بينها هي إمارة الرياض التي استطاع الملك عبد العزيز أن يخلصها من آل الرشيد، وإمارة حائل لابن الرشيد في الشمال، ودولة الحجاز للشريف حسين في الوسط وإمارة صبيا للسيد محمد على الإدريسي وإمارة صنعاء للإمام يحيى بن حميد الدين في الجنوب. وإلى جانب هذه الإمارات الخمس كان هناك إمارتان صغيرتان الأولى في الجوف شرقي الشام ويسيطر عليها آل الشعلان ... أما الإمارة الثانية فكانت إمارة

آل عايض في أبها" (جمعة، ١٩٨٢).

ومع هذه الحالة من الانقسامات التي كانت عليها الجزيرة العربية لم يكن من الممكن أن تتولد معها هوية واحدة قومية تجمع كل من يعيشون على أرضها ؛ بل على العكس من ذلك، فقد "كانت الانقسامات الإقليمية والتجزئة القبلية والحروب الأهلية والغزوات القبلية من الأمور الشائعة التي زعزعت الأمن" (الشثري، د.ت) على أرض البلاد.

وقد أفاض المؤرخون في تناول أحداث توحيد المملكة على يد الملك عبد العزيز بدءاً من استرداده الرياض وتخليصها من حكم محمد بن الرشيد وانتهاء بإعلان المملكة العربية السعودية في ١٧ جمادى الأولى عام ١٣٥١ هجرية، يوم صدر مرسوم ملكي يقضي بتوحيد أجزاء المملكة وأن تسمى المملكة العربية السعودية وأن يكون ملكها: ملك المملكة العربية السعودية" (السماري، ١٩٩٩م).

وما يهم هنا هو الإشارة إلى أن إقامة مملكة موحدة على أرض الجزيرة العربية التي تبلغ مساحتها مليون ونصف مليون كيلو متر مربع وتمتد من الخليج العربي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً ومن الحدود الأردنية شمالاً إلى بحر العربي جنوباً في وقت كانت وسائل التنقل الأساسية هي الإبل والخيول يعد عملاً يقترب من المعجزة على نحو ما يذهب العديد من المؤرخين. هذا فضلاً عن أن توحيد المملكة على يد الملك عبد العزيز لم يكن بالمعنى المتعارف عليه في التوحيد ما بين قطرين متجاورين وإنما كان تحقيقاً للتكامل بين أجزاء مجتمع واحد، وقضاء على ظروف التفكك والانحلال التي أحاطت به.

وترجع أهمية توحيد المملكة إلى أنها ضمت الأجزاء الجغرافية المتعددة في كل واحد يسمو ويعلو على هذه الأجزاء. وتبعاً لذلك لم تعد هناك أهمية للحدود التي كانت معروفة لدى القبائل والتي كانت تسهم في عزل كل قبيلة عن غيرها وتشكل "محور صراع بين القبائل والعدوان المتبادل والصراع المرير بينهم وذلك لأن بعض المناطق كانت أوفر حظاً من غيرها من حيث موارد المياه أو لقربها من الطرق الرئيسة المأهولة" (Al-Sa'ati, 1998) .

لقد خلق توحيد المملكة كياناً جغرافياً متكاملاً يمثل الرمز المكاني الذي يتجمع حوله كل أبناء الجزيرة العربية وجعل انتمائهم القومي يعلو على انتمائهم القبلي والمحلي الضيق. فالهوية الوطنية لا تظهر إلا إذا كان لدى أفراد المجتمع اعتقاد بأنهم ينتمون إلى أمة بعينها، وأنهم جزء لا يتجزأ منها ومن ثم تتجاوز نظرتهم حدود القبيلة والمجتمع المحلي إلى المجتمع على المستوى القومي.

وأسهم توحيد المملكة في اندماج قطاعات السكان وزيادة وتيرة حراكهم المكاني والاجتماعي داخل المجتمع السعودي، ولم تعد موارد المجتمع وثرواته تخص قطاعاً منه دون غيره من القطاعات الأخرى وإنما أصبحت تصب كلها في معين واحد هو الدولة التي

تفرض قواعد عامة للاستفادة بتلك الموارد وتطبقها في كل مكان من المملكة دونما تمييز بين الأفراد على أساس من القبيلة أو الانتماء العرقي.

العامل الثاني: توطين البدو

وإذا كانت عملية التوحيد هي التي وفرت الإقليم المتكامل الذي يخلو من النزاعات والانقسامات وهي سمة مهمة من سمات الهوية الوطنية السعودية، فإن عملية توطين البدو دعمت الرابطة بين الإقليم وبين أبنائه.

ويرى بعض الباحثين أن الملك عبد العزيز – يرحمه الله – قد بنى سياسة التوطين على ثلاثة أسس متكاملة "الأساس الأول: تصحيح العقيدة، إذ إن أغلب مجتمعات البادية آنذاك كانت تجهل كثيراً من أمور العقيدة، فعنى الملك عبد العزيز بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصص لذلك علماء يجوبون الهجر. والأساس الثاني: مراعاة الجانب الأمني، ولاسيما في مجتمع البادية الذي لا يعرف – غالبه – الانضباط الأمني، فاستفاد مما جبل عليه البدوي من الأخلاق الفاضلة، كالشجاعة والغيرة، وجعل من القوة وسيلة لنشر الأمن والسكينة، ولردع المتمرد. والأساس الثالث: توفير وسائل الاستقرار، ولاسيما الماء الذي كان الفرد عاجزاً بجهده الذاتي وحتى في مجتمعه البدوي الصغير – على توفيره لشربه ولسقيا دوابه فضلاً عن زراعته"(السماري، ١٩٩٩).

وأياً كانت الأهداف السياسية أو العسكرية أو الأمنية التي سعى الملك عبد العزيز إلى تحقيقها من توطين البدو، فما يعنينا هو ما أسهمت به عملية التوطين في تكوين الهوية الوطنية السعودية عن طريق إيجاد الرابطة القوية بين الأفراد والأرض التي يقيمون عليها. فقد غير التوطين من أساليب الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي نشأ عليها البدو وقوامها الترحال وعدم إقامة علاقة مع المكان الفيزيقي المتمثل في الموطن. والواقع أن رابطة الانتماء بين الإنسان والوطن الذي يعيش على أرضه هي التي أدت إلى تشكيل الجيوش للدفاع عن ذلك الوطن ضد كل عدوان أو غزو يتعرض له وهي التي تسهم في تكوين الهوية الوطنية له.

وبالإضافة إلى ما يخلقه التوطين من رابطة انتماء بين الإقليم الجغرافي وأبنائه الذين يعيشون فوقه فقد ساعد على صوغ نوع جديد من علاقات الجوار والتبادل الاجتماعي والاقتصادي والتي لم تشمل أبناء القبيلة الواحدة فحسب وإنما امتدت لتشمل أبناء القبائل المختلفة وبذلك تزايدت كثافة العلاقات الاجتماعية بينهم مما ساعد على انصهارهم جميعاً في بناء اجتماعي واحد. ويجمع علماء الاجتماع، في هذا الشأن، على أن استقرار الإنسان في موطن واحد كان أساس تكوين الثقافات ونشوء الحضارات واكتساب الأفراد هوية متميزة، حتى أن كثيراً منهم تتأثر شخصياتهم بالبيئة التي يعيشون فيها.

وقد لعبت سياسة توطين البدو دوراً مهماً في

استقرار القبائل وتوطيد شعورها بالانتماء للأقاليم التي تعيش على أرضها ومن ثم للمجتمع القومي بأسره. وعزز هذا الاستقرار ما ارتبط بسياسة التوطين من برامج تنموية متعددة "اشتملت على النواحي المتعلقة بالزراعة والصحة والتعليم والشئون الاجتماعية ... — وبالتأكيد — التزام الدولة بمساعدة المناطق وخاصة المناطق الريفية — على تطوير الأنشطة الإنتاجية التي تشجع أكبر عدد من السكان على البقاء في هذه المناطق ومد الخدمات إليها" (المحيميد، ١٩٩٦م) والعمل على التخلص من التفاوت في درجات النمو بين تلك المناطق.

والحقيقة أن تكوين الهوية الوطنية يعتمد في جانب منه على وعي المواطنين بانتمائهم للوطن الذي يعيشون على أرضه وينمو هذا الوعي بالعلم والتثقيف وتحسين الأوضاع الاجتماعية والعمرانية والثقافية للأفراد. وهو ما نجحت سياسة التوطين في إنجازه عندما استقر البدو في الهجر التي كانت نواة الوحدات الاستيطانية لهم.

لقد كان بدوي الصحراء قبل التوطين "متذبذباً في مواقفه، لا ينساق إلى مفاهيم غير تقاليد قبيلته، تفكيره لا يتجاوز مضارب عشيرته، وتلك أقصى نظرته إلى الوحدة والهوية" (بيسون، ١٩٩٩م). وتسفر هذه النظرة الضيقة في غالب الأمر عن التعصب الفكري والانحياز التلقائي للقبيلة.

ومن الملاحظ أن عملية توطين البدو تواكبت مع استتباب الأمن في أرجاء المملكة والذي كانت مهمة تحقيقه بالغة الصعوبة في ظل انتشار القبائل في الصحراء والأودية، وقد ساعد حفظ الأمن على إبراز سيادة الدولة وتأكيد هويتها، ذلك أن شيوع الفوضى في أرجاء ومناطق المملكة والإغارة والسلب لم يكن من شأنه أن يخدم ذلك الهدف، ذلك أن طغيان الأقوياء على الضعفاء يمكن أن يهدد انتماء الناس لدولتهم (Al-Sa'ati, 1998).

وأخيراً، مما لاشك فيه أن توطين البدو هيأ للملك عبد العزيز فرصة إرساء الدعائم السياسية للدولة كتنظيم سياسي كبير يتمتع بالثبات في أرجاء الجزيرة العربية وقضى على الولاءات الضيقة التي رسخت في ظل حياة الترحال سعياً وراء الرزق.

العامل الثالث: القيادة الملهمة (الكاريزمية)

يتميز القائد الملهم بمواهبه النادرة وبما تتمتع به شخصيته (الكاريزمية) من قدرات فريدة وإمكانيات فذة تؤهله لاستمالة أتباعه واكتساب حبهم. ويشير مصطلح الكاريزما Charisma عند ماكس فيبر (Weber, 1914) إلى كل قائد "يكون صاحب صفات استثنائية خارقة أو على الأقل يكون لديه قوى استثنائية. وهذه الصفات ... ينظر إليها البعض على أنها هبات إلهية". وبفضلها يتميز القائد الملهم أو الكاريزمي عن غيره من الأشخاص، وتكون له الطاعة المطلقة وغير المشروطة من أتباعه الذين يعتقدون في بطولته ويقدرون ملكاته.

والشخصية الملهمة تتمتع بالقدرة على تجميع الناس

حولها وعلى قيادتهم نحو هدف محدد وعلى نشر القيم التي تدافع عنها. كما يمكنها استخدام القوة للتخلص من النظم الاجتماعية القديمة وتشييد نظم أخرى بديلة لها، ومن ثم تمهد العوامل الكاريزمية الطريق لعملية التكامل المجتمعي على المستوى القومي وتسهم في بلورة الهوية الوطنية (بيومي، ١٩٨١م).

ويتفق عدد كبير من الكتاب في الشرق والغرب على أن الملك عبد العزيز كان يتمتع بصفات كاريزمية تميزه عن غيره من معاصريه، فقد كان – رحمه الله – "من الناحية الجسمية يتميز بطول القامة، وبالقدرة على تحمل المشاق وخوض المعارك ولا يبالي بالجراح التي قد تصيبه. ومن الناحية الروحية كان إيمانه يهيمن على حياته" (Sheikh, 1986) كما كان أيضاً "مهاب الطلعة قوي الذاكرة، متوقد الذهن، شديد الذكاء، واسع الحيلة، حسن التدبير، كثير التجارب" (السماري، ١٩٩٩).

والواقع أن السجايا التي سجلها المؤرخون عن الملك عبد العزيز تكشف عن تمتعه بكل خصائص القائد الملهم. ولعل أهم تلك السجايا تفهمه لطبائع الناس في عصره وتقييمه للرجال وإمكانياتهم وما كان يتمتع به من فصاحة وحكمة جعلت منه قدوة يتأسى بها أفراد رعيته ويدركون مكانتهم عنده ويقدرون شخصيته.

ويرى الزركلي (١٩٧٢م). أن الملك عبد العزيز كان "يخاطب البدوي بلهجة البدوي، والحضري بلهجة الحضري، وما استمع إليه أجنبي إلا خرج مفتوناً بحديثه". وتوضح هذه الحقائق مدى ما اجتمع للملك عبد العزيز – رحمه الله – من صفات جعلته قريباً من نفوس أتباعه متوحداً معهم فتوحدوا معه.

ويمكن القول، أن توحيد المملكة وسياسة التوطين لم يكن من الممكن نجاحها في الفترة الزمنية الوجيزة التي تحققت خلالها لولا ما يتمتع به الملك عبد العزيز من صفات كاريزمية أهلته لتغيير الواقع الذي كان سائداً وساعدته على خلق نسق قيمي جديد لإحداث التغير الاجتماعي. فالقوة الروحية التي كان يتمتع بها هي التي تبث الثقة في المستقبل بين أتباعه وأشعلت فيهم الحماس ليقدموا له ولاءهم المطلق وما يتبع ذلك من تكون هوية قومية لديهم تعبر عن انتمائهم لهذا القائد وحركته الاجتماعية التي يقودها؛ ذلك أن الولاء وإن كان قد يبدأ بالتوجه نحو شخص القائد الملهم إلا أنه لا يلبث أن يتجه نحو النظام الذي أنشأه ذلك القائد ضماناً لاستمرار الحكم وصيانة لذلك النظام.

العامل الرابع: الأخلاق والقيم الإسلامية

تعد الجزيرة العربية مهدا للرسالات السماوية ومهبطاً للدين الإسلامي وموطناً لخاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم – ومحلاً للكعبة المشرفة أقدس الرموز الإسلامية على الإطلاق. وهيأت كل هذه الظروف القبائل العربية لتلقى الأخلاق والقيم الإسلامية واتخاذها مظلة ثقافية توجه أفكارهم وسلوكهم. وقد

امتزجت هذه الأخلاقيات بالأعراف والشيم العربية الأصيلة مثل الكرم والشجاعة والمروءة والاعتزاز بالنفس لتنسج شخصية سكان الجزيرة على نحو جعلهم يرفضون الخضوع للغير والانقياد له.

وقد كان توحيد المملكة سياسياً يعني تركيز القوة في يد الدولة والتأكيد على الولاء للنظام السياسي والسيطرة على البناء القبلي القديم لتجنب أسباب الانقسامات والنزاعات التي تهدد وحدة المملكة. ووجد الملك عبد العزيز أن بناء الدولة في إطار الالتزام بقواعد الإسلام يضفي عليها الهوية الإسلامية ويحول ولاء الأفراد من مجرد ولاء لمؤسسي الدولة إلى ولاء للدين الذي تقوم عليه وتدافع عنه الدولة.

وفي هذا الإطار من الهوية الإسلامية نفذت سياسة توطين البدو، فأنشأ الملك عبد العزيز الهجر وهي "مجمعات، خاصة بالبدو، وخصص علماء يفقهونهم بالدين، ويشيعون بينهم القيم الإسلامية، والحسن من الأعراف والتقاليد. وفي هذا الوسط ترعرع الأخوان الذين تأثروا بالمطاوعة أو المتحمسين. هؤلاء المطاوعة كانوا في أعين البدو أنموذجاً لحياة السلف الصالح، يدعون إلى الفضيلة، ويكافحون الجوانب السيئة لأعراف الصحراء ..." (بيسون، ١٩٩٩م).

واقترن استقرار البدو في الهجر بإحلال روح الأخوة الدينية محل العصبية القبلية وامتزجت القبائل في إطار من الولاء للدين وللدولة التي ترعاه وتوقفت الغارات والنزاعات القبلية وتوجهت طاقات البدو للدفاع عن الأرض التي استقروا عليها ولنشر الدعوى الدينية وتوحيد أقاليم المملكة لنصرة هذه الدعوة ومحاربة كل من يناوئها ويريد النيل منها.

كان الحماس الديني للبدو عاملاً مهماً في توحيد المملكة كما كان عاملاً مهماً في التوطئة لهجرتهم من حياة التنقل والترحال إلى حياة الاستقرار. وامتزجت الهوية الدينية الإسلامية بالهوية السياسية للدولة السعودية الناشئة. وفي هذا الشأن يؤكد علماء الاجتماع أن الدين من أهم العوامل التي تبرز الهوية المشتركة لمن ينتمون لدين واحد (Neubeck, 1996). ويتجلى هذا بوضوح في نصوص الأحاديث النبوية الشريفة التي لم تشر إلى الاشتراك بين المسلمين في هوية واحدة فحسب وإنما سمت بالرابطة بين أفراد المجتمع المسلم إلى مرتبة الأخوة في الدم، وعَدَّتهم إخواناً، ورسمت الأطر التي ينبغي أن تصاغ فيها العلاقات ما بين أولئك الأخوان على نحو يخدم المجتمع وقضايا الإسلام.

نخلص مما سبق إلى أن توحيد المملكة وتوطين البدو وما كان يتمتع به الملك عبد العزيز من صفات كاريزمية كانت العوامل الأساسية التي أسهمت في تكوين الهوية السعودية. وقد تبلورت هذه الهوية في إطار حركة إسلامية سلفية جعلتها تمتزج بالهوية الإسلامية، حتى أننا نستطيع القول، بأنها هوية سعودية في بنائها السياسي وإسلامية في شخصيتها وثقافتها وهما وجهان لا ينفصلان لكيان واحد.

ثالثاً: عوامل قوة الهوية السعودية

هناك عدة عوامل تساعد على دعم قوة الهوية السعودية واستمرارها نتناولها فيما يلي :

١- دعم دولة المؤسسات

لعبت الشخصية الكاريزمية للملك عبد العزيز دوراً بارزاً في تأسيس الدولة السعودية ، وبوفاته – رحمه الله – وبمرور الزمن ، ينتهي الجيل الذي عاصر القائد الكاريزمي وتحتاج الدولة في استمراريتها لأسس جديدة تدعم الولاء للسلطة السياسية الحاكمة.

ويتم التغلب على مشكلة تحول الكاريزما ، على حد تعبير ماكس فيبر، بإنشاء المؤسسات السياسية التي تمكن للحكم المركزي وتوفر له قنوات الاتصال والسيطرة. وتقترن فكرة دولة المؤسسات دائماً بالتأكيد على انتشار المعايير القانونية في الإدارة وتحقيق الأجهزة البيروقراطية للعدالة ودعوة أفراد المجتمع للاهتمام بالشئون العامة والمشاركة في صنع القرار (Black, 1996).

إن ازدهار دولة المؤسسات يدعم انتماء الأفراد للمجتمع السياسي ويشعرهم بقيمة المواطنة ويزيد من قوة توحدهم مع النظام الحاكم ومن ثم هويتهم الوطنية.

٢- تعبئة موارد المجتمع لرفاهية أبنائه

إن المجتمع بالنسبة للأفراد الذين يعيشون على أرضه هو الوطن الأم motherland ، وهذه الكلمة "تنطوي على معاني العطاء والرعاية والاحتضان التي تصدر عن الوطن" (Hossen, 1994). والإقليم الجغرافي الذي يتميز بالثراء في موارده ، كما هو الحال بالنسبة للمملكة ، تتزايد توقعات أبنائه وتطلعاتهم إلى الحياة الرغدة والرفاهية ومن ثم فإن أحد عوامل قوة الهوية والانتماء إلى هذا الإقليم تتمثل في مدى نجاح الحكومة في تعبئة موارد هذا الإقليم واستخدامها استخداماً رشيداً من أجل رفاهية الأفراد. وإخفاقها في أداء هذه المهمة غالباً ما يكون سبباً لكل أنشطة التمرد والاحتجاج في المجتمع.

فضلاً عن ذلك ، يقع على الحكومة أيضاً عبء إزالة الفوارق بين قطاعات المجتمع المختلفة ، وخاصة التي تنشأ عن التحيز التنموي مما يؤدي إلى تمتع فئات من أبناء الدولة بتسهيلات في الحياة لا يتمتع بها أقرانهم أو إلى استمرار حياة أجزاء من المجتمع في عزلة عن غيرها. ذلك أن مثل هذه الفوارق التنموية من شأنها أن تؤذي الشعور الجمعي بالتعايش المشترك بين المواطنين ، وبالتوحد مع المكان وتخلق فجوات بين قطاعاتهم مما يلقي بظلال من الشك على فاعلية الهوية الوطنية في تحقيق التقارب والتوحد بينهم.

٣- المحافظة على الدعائم الإسلامية للحكم ورموزه

امتزجت الهوية السياسية للمملكة العربية السعودية بالهوية الإسلامية وقامت الدولة وتوحدت على أساس تبني دعوة العودة إلى العقيدة الصافية التي كان عليها السلف من الصالحين وتحقيق العدل والمساواة بين أبناء الوطن في ظل حكم الشريعة السمحة (الشثري ، د.ت) وقد نجحت هذه الدعوة في إخراج أبناء القبائل

من ولائهم للقبيلة والاتّجاه به إلى الدولة التي تحمل لواء الدين.

وقد يعتقد بعض الأفراد أن الإجبار يمكن أن يكون أحد عوامل كسب هذا الولاء "ولكن التجربة أثبتت خطأ هذا الاعتقاد في حالة قيام ابن الرشيد أمير حائل باستخدام القوة للسيطرة على نجد" (Toufik, 1985). وهنا تتجلى أهمية دور الإسلام الذي شكل الركيزة الشرعية التي قام عليها حكم الملك عبد العزيز وبلور الهوية التي تميزت بها دولته. فقد كان الإسلام هو الوعاء القيمي الذي انصهرت فيه هوية أبناء الجزيرة العربية.

والواقع أن أهمية العامل الديني في صياغة الهوية السعودية ينبهنا إلى أنه أياً كانت قوة دعاوى الإصلاح الديني التي تتعرض لها المملكة فإن دور الدين ينبغي ألا يتراجع إلى الحد الذي يهدد فيه هوية المجتمع والأسس التي قامت عليها وحدته واستقراره. فذلك التراجع يخل بالأساس الذي يقوم عليه الاتفاق الجمعي ويؤدي إلى إصابة البناءات المعيارية بالعجز وتتولد عن ذلك أزمات اجتماعية تؤدي إلى اضطرابات تلحق بنسق التكامل الاجتماعي ومن ثم بهويته الوطنية (Habermas, 1976).

وهنا ينبغي أن نشير أيضاً إلى أهمية المحافظة على قدسية الرموز الدينية والتاريخية التي أسهمت في صياغة الهوية الوطنية السعودية ذلك أن النيل من هذه الرموز يحدث أثراً بالغ الضرر بالكيان الذي يلتف حوله أفراد المجتمع ويوجهون نحوه مشاعرهم بالتوحد.

٤- التوافق مع تيارات التحديث والعولمة

تشكل تيارات التحديث والعولمة التي تهب على المملكة العربية السعودية من الغرب تحدياً كبيراً لهويتها الوطنية. وقد كشفت التجربة المجتمعية أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها المجتمعات تخلف مواقف غير تقليدية تستدعي من أفراد المجتمع البحث عن هوية جديدة لهم تحقق لهم نوعاً من التوافق مع التجربة الاجتماعية أو السياسية التي طرأت عليهم.

وتَجِدُّ المملكة العربية السعودية في مواجهة شكل من أشكال هذه التحولات حيث يحتك أبناؤها بالوافدين إليها من ثقافات متباينة منها ما هو إسلامي ومنها ما هو غير إسلامي، ويتعاملون مع أفضل ما أنتجته التكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة مع ما تحمله إليهم من رسائل ثقافية فرضت على المجتمع السعودي قضايا لم تكن مثارة من قبل، مثل: حقوق المرأة وحقوق الإنسان والحريات السياسية والرقابة الدينية على الإبداع الثقافي وغيرها من موضوعات تقتضي الحكمة في مناقشتها والروية في معالجتها.

إن هذه القضايا التي تثيرها المؤتمرات والندوات التي تنظمها منظمات اجتماعية وثقافية، [(١)] تنبئ عن

(١) عقدت في المملكة العربية السعودية مؤتمرات عديدة فجرت كثيراً من القضايا المثيرة للجدل عن المرأة وحرية التعبير والإبداع الثقافي مثل:

١- ملتقى المثقفين السعوديين الأول، سبتمبر ٢٠٠٤. =

تغيرات ملموسة في البناء الاجتماعي السعودي إما نتيجة لتزايد أعداد المتعلمين في المملكة أو لتزايد وتيرة الاحتكاك الثقافي بالغرب عن طريق الاتصال المباشر أو غير المباشر أو لكل هذه الأسباب مجتمعة.

وهذه التغيرات ما لم يتم استيعابها على نحو يتوافق مع الشريعة الإسلامية والقيم المنبثقة عنها فإنها قد تخلق ثقافة مناوئة للثقافة السائدة، وتهدد الهوية الوطنية التي تكونت منذ عقود من الزمان وتميزت بها المملكة العربية السعودية.

خاتمة

تناولنا في هذا البحث الهوية السعودية والدور الذي لعبته عوامل مثل توحيد المملكة وتوطين البدو والصفات الكاريزمية للملك عبد العزيز في تكوين تلك الهوية وصياغتها في إطار من القيم الدينية الإسلامية. وألقينا الضوء على أهمية هذه الهوية في إخراج أفراد المجتمع من الولاءات العائلية والقبلية الضيقة إلى الولاء للنظام السياسي أو الدولة التي ترفع لواء التوحيد والدعوة إلى الإسلام.

وعرضنا بعد ذلك عوامل قوة الهوية الوطنية السعودية واستمرارها ووجدنا أنها تكمن في دعم دولة المؤسسات وحرص الدولة على تعبئة الموارد المتاحة على أراضيها لتحقيق رفاهية أبنائها والمحافظة على القيم الإسلامية والرموز الدينية والتاريخية والتوافق مع تيارات التحديث والعولمة تحت مظلة هذه القيم.

وقد تبين لنا من التحليلات التي عرضناها أن الهوية الوطنية تمثل قاسماً مشتركاً بين أفراد المجتمع، حيث توجههم نحو التوحد مع الإقليم الذي يعيشون فوقه ومع الثقافة الوطنية التي تجمعهم كما تدفعهم نحو السلوك الجمعي التلقائي في المواقف العامة؛ فالناس الذين يشتركون في هوية قومية واحدة يشكلون معاً وحدة كلية تكون معبأة للتحرك الجماعي معبرة عن روح المجتمع وكيانه.

ونظراً لأهمية الهوية الوطنية للمجتمع فهي تتعرض في كثير من البلدان، ومن بينها المملكة العربية السعودية لمحاولات النيل منها تحت الادعاء بضرورة إصلاح المجتمع وأهمية الانفتاح على الغرب والأخذ بمستحدثات العصر بصرف النظر عن كل ما يبجله المجتمع من قيم وأخلاقيات توصف بالجمود والتقليدية. ومع ذلك نلحظ أن مجتمعاً مثل المجتمع الياباني استطاع أن يحقق أعلى درجات التقدم الاقتصادي والعلمي والتقني في الوقت الذي ظل فيه محافظاً على هويته الوطنية وثقافته الوطنية. ويستوجب هذا الأمر ضرورة دراسة الآليات التي استعان بها مثل ذلك المجتمع لتحقيق الموازنة بين ثقافته التقليدية ومتطلبات التحديث والعولمة، واتخاذه دليلاً يمكن الاسترشاد به في مواجهة التحديات التي تتعرض لها الهوية الوطنية في المجتمع العربي السعودي.

= ٢- مؤتمر الحوار السعودي، يونيو ٢٠٠٤.

٣- مؤتمر صورة المملكة العربية السعودية في العالم، أكتوبر ٢٠٠٤.

مراجع البحث

المراجع العربية:

بيسون، ايف . *ابن سعود، ملك الصحراء، تأسيس المملكة العربية السعودية*. ترجمة عبد الله بن حمد الدليمي وعبد الله بن عبد الرحمن الربيعي. الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ص ١١٨. (١٩٩٩).

بيسون، ايف، مرجع *سبق ذكره*، ص ١٢٠. (١٩٩٩).

البيطار، نديم، *حدود الهوية الوطنية: نقد عام*، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ص ٢١٤. (٢٠٠٢).

بيومي، محمد أحمد. *علم الاجتماع الديني*، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ص ٤٠٩. (١٩٨١).

جمعة، رابح لطفي، *حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز*، الرياض: دار الملك عبد العزيز – ٢٣ – ص ٣١. (١٩٨٢).

الزركلي، خير الدين . *الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز*، ط ٢، بيروت: الشركة العامة للطباعة، ص ٢١٢. (١٩٧٢).

السماري، إبراهيم ابن عبد الله . مرجع *سبق ذكره*، ص ٢٥. (١٩٩٩).

السماري، إبراهيم بن عبد الله، *الملك عبدالعزيز، الشخصية والقيادة*، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ص ٢٧. (١٩٩٩).

السماري، إبراهيم بن عبد الله، مرجع *سبق ذكره*، ص ص ١١٧- ١١٨. (١٩٩٩).

الشتري، محمد بن ناصر (د.ت)، *الدعوة في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله*، رسالة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية الدعوة والإعلام ص ٤٦.

الشتري، محمد بن ناصر (د.ت)، مرجع *سبق ذكره*.

المحيميد، محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم، ***تحليل*** *وتقويم خدمات المجتمعات القروية بمنطقة القصيم، دراسة في جغرافية الريف*، سلسلة الرسائل العلمية، مركز البحوث – كلية الآداب – جامعة الملك سعود، الرياض ص ص٣٦، ٣٧. (١٤١٧هـ – ١٩٩٦م).

المراجع الأجنبية:

Al-Sa`ati, Hassan "King Abdulaziz Policy for the preservation of Security in the Kingdom of Saudi Arabia", A paper presented at a conference on: *The History of King Abdulaziz Ibn Abdulrahman Al-Saud*, held in Al-Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University, Riyadh, P. 135. (1419 H. 1998 G).

Al-Sa`ati, Hassan, *Op. Cit.* (1419H. 1998) .

Black, C. E. *The Dynamics of Modernization.* N. Y.: Harper and Row Publisher P. 13. (1966).

Bloom, William, *Personal Identity and International Relations, Cambridge:* Cambridge University Press, P. 52. (1990).

Deutsch, Karl W. *Tides Among Nations,* N. Y.: The Free Press. (1979).

Durkheim, Emile. *The Division of Labor in Society,* Trans. George Simpson, New York: The Free Press. (1964).

Henry Pratt Fairchild (ed). *Dictionary of Sociology* N.J: A Littlefield Adams, P. 201. (1977).

Habermas, J. *Legitimation Crisis.* London: Heinemann P. 118. (1976).

Hossen, David. "Introduction" in: *Geography and National Identity*, By David Hossen (ed), Oxford: Blackwell, P. 1. (1994)

Hossen, David. *Op. cit.* (1994).

Neubeck, Kenneth J. and Glasberg, Davita Silfen, *Sociology: A Critical Approach*, N. Y.: Mc-Graw – Hill Co. p. 510. (1996).

Sheikh Iqbal, Mohammed. *Saudi Arabia: Its Founding and Development 1901 to 1986.* Kashmir: Saidiyah, Brazalla Bridge, Sirnagar. P. 46. (1986).

Toufik, Suliman Ibrahim, *The Emergence of National Identity in Saudi Arabia*, a Ph. D Thesis, University of Idaho, U.S.A. (1985).

Weber, Max. *The Theory of Social and Economic Organization*, Trans by A. M. Henderson and Talcott Parsons, N. Y.: The Free, pp. 358, 359. (1914).

Saudi National Identity: Factors of its Rise and Strength

Hassan Mohamed Hassan
Assistant Professor of Social Science, College of Arts,
King Saud University

(Received 14/9/1432H.; accepted for publication 28/11/1432H.)

Abstract. This research aimed at discovering the real factors contributed to the rise of the Saudi national identity and provided it with strength to challenge the foreign cultural effects and to stand firm against all the attempts to the dissemination of the western cultural values through modernization and tolerance arguments.

In addition, this research examined the methods of supporting Saudi national identity to assure its continuity through time in spite of the changes which might affect the society as a result of cultural contact with others.